المحاضرة التاسعة

(الميروفنجيون)

مر معنا ان مملكة الفرنجة قسمت للمرة الثانية بين ابناء لوثر الأول الاربعة بعد وفاته عام ٥٦١ . وبرزت نتيجة لهذا التقسيم الجديد ثلاثة كيانات سياسية هي اوستراسيا ونستريا و برغنديا.

وسرعان ما نشب الصراع بين الاخوان ، وحاول كل واحد. منهم التجاوز على املاك اخوته الاخرين ، ولعبت زوجات الملوك دورا رئيسا في توجيه سياسة الملوك المورفنجيين في هذه المرحلة. وكانت كل واحدة منهن تحاول الهيمنة على شؤون زوجها الضعيف وتوجيهها بشكل يضمن مصالحها و مصالح ابنائها من دون اي اعتبار آخر، واستمر الصراع بين الملوك المورفنجيين وزوجاتهم حوالي نصف قرن وانفردت في عام ٥٩٧ برونهلد بالسلطة في اوستراسيا وبرغنديا ولكن برونهلد سرعان ما اصطدمت بمقاومة النبلاء الفرنجة . واستدعى هؤلاء النبلاء كلوتير ملك نستريا لمساعدتهم ضدها. ودارت الحرب بين النبلاء الفرنجة وكلوتير من جهة وبرونيلد من جهة اخرى . وانتهت الحرب بهزيمة الاخيرة ، وقد قتلها خصومها بطريقة متوحشة تتلائم مع طباع قومها الجرمان المتوحشين. و هكذا توحدت مملكة الفرنجة مرة اخرى على يد كلوتير ولكن هذا لم يتمتع بسلطة كبيرة في مملكته الجديدة ، وذلك لتزايد نفوذ النبلاء وارتفاع منزلتهم . والواقع ان الاحداث السياسية في مملكة الميروفنجيين لا يمكن ان تفهم الا في ضوء التطورات الاجتماعية والاقتصادية التي حدثت في مجتمع الفرنجة في هذه الفترة بالذات. فقد تميزت الفترة بزيادة قوة النبلاء الفرنجة واشتداد باسهم ومنافستهم للسلطة الملكية المركزية وسعيهم الحثيث للتجاوز على اختصاصاتها . والحقيقة ان انتصار كلوتير على برونهلد يمثل الى حد كبير انتصار الطبقة النبيلة وضعف السلطة المركزية والتمهيد لظهور الاقطاع وليس من الغريب ان نرى كلوتير يضطر بعد هذا النصر الى اعطاء الكثير من التنازلات للنبلاء الدينيين والعلمانيين على حد سواء

فقد اصدر كلوتير في ٦١٤ تشريعا نضمن كثيرا من الامتيازات النبلاء ، فبالنسية الى النبلاء الدينيين تعهد الملك بعدم التدخل في انتخاب الاساقفة ووسع اختصاصات المحاكم الكنسية ، وحصر محاكمة رجال الدين بتلك المحاكم ، وتعهد بعدم التجاوز على املاك الكنيسة واموالها باى شكل من الاشكال . اما بالنسبة الى النبلاء العلمانيين فقد تعهد برفع جميع الضرائب التي فرضت عليهم بطريقة غير عادلة ووعدهم بسلطات وصلاحيات اوسع في اقطاعياتهم . وهكذا حول كلوتير جزءا من السلطات الملكية الى الحكومات المحلية التي يمارس النبلاء

أنفسهم الحكم فيها. والاكثر من كل هذا اهمية ان ممثل النبلاء وزعيمهم خلال الصراع مع برونهلد والمعروف برئيس البلاط زادت سلطته كثيرا الان وصارت وظيفته وراثية بتسلمها الابناء عن الاباء.

وخلف كلوتير الملك داغوبرت (Dagobert) ٦٢٩ – ٦٣٩ وهو آخر ملك من الملوك الميروفنجيين كان له شيء من النفوذ فقد بدأ من بعده عهد جديد من حكم الملوك الذين لا يملكون من السلطة الفعلية شيئا ويوصف هؤلاء (بانهم الملوك الذين لا يعملون شيئاً) ووصفهم اينهارت مورخ شارلمان بانهم (ضعفاء البنية واحداث يتزوجون مبكرين ويموتون مبكرين ، ويعيشون حياة لا مجدية). اما السلطة الفعلية فقد انتقلت الى رؤساء البلاط وانحصر هذا المنصب في عائلة واحدة هي العائلة الكارولنجية.

الكارولنجيون – رؤساء البلاط :

ترجع اصول العائلة الكارولنجية التي انحصر في افرادها منصب رئيس البلاط الى اوستراسيا حيث الطابع الجرماني اكثر وضوحا من اي جزء من اجزاء مملكة الفرنجة . وقد لعبت هذه العائلة دورا مهما خلال الصراع مع الملكة برونهلد . وكان بين (pepin) اول من تولى منصب رئيس البلاط في هذه العائلة . واصيبت العائلة بانتكاسة بعد ببيبن عندما حاولت انتزاع السلطة نهائيا من الميروفتجبين بعزل الملك الميروفنجي وارتقاء احد افرادها العرش. فقد كانت المحاولة سابقة لاوانها فتضافرت جهود النبلاء والكنيسة لاحباط محاولة الكارولنجيين هذه. ويبد ان النبلاء والكنيسة كانوا يفضلون الابقاء على الميروفنجبين الضعفاء على سواهم من الحكام الاقوياء الذين قد يجردونهم من سلطانهم وامتيازاتهم.

واستعاد الكارولنجيون مكانتهم في عهد بيبن الثاني او ما يعرف بيبن هرتزال. فقد استطاع هذا الارتقاء الى منصب رئيس البلاط مرة اخرى. وفي عهده كرئيس للبلاط اشتد الصراع بينه كممثل للسلطة المركزية وبين النبلاء الذين كانوا يريدون اضعاف تلك السلطة وتفكيكها. والواقع ان بيبن الثاني ظهر على مسرح الاحداث في مملكة الفرنجة في الوقت الذي كانت فيه تلك المملكة على شفا الانهيار والانحلال. لقد جاء بيبن ليتم ما بدأه كلوفس واليعيد بناء الدولة وليمد حدودها ويستعيد هيبتها وكانت مملكة الفرنجة قد خسرت كثيرا من اراضيها في عهد الفوضى والحروب الداخلية . فقد خلعت اوكتين عنها نير الفرنجة وثار البافاريون والالماني واستقل حكامهم فقام بيبن بحملات متواصلة على الالماني وعلى البافاريين وعلى اوكتين واستطاع دحرهم جميعا فاعاد وحدة مملكة الفرنجة. اضافة الى هذا اخضع النبلاء وحد من النفوذ المتزايد للكنيسة.

شارل مارتل :

وكادت جهود بيبن تذهب سدى بعد وفاته ، وذلك بسبب الخلاف افراد – عائلته على وراثة منصبه. ولكن ابنه غير الشرعي والذي عرف بشارل مارتل (شارل المطرقة) قدر له ان ينقذ مملكة الفرنجة وبخلصها مما كان يحيط بها من مخاطر وان يواصل الجهود التي بدأها اسلافه في بناء مملكة الفرنجة و في بسط نفوذها على جميع الاراضي التي كانت تسكنها الشعوب الجرمانية.

وركز شارل مارتل جهوده لضم الجرمان وراء الراين. وكان القديس بونيفاس يقوم بالتبشير بين الوثنيين هناك فدعم شارل مارتل جهوده وقد اعترف البابا بجهود شارل مارتل ، انني لا استطيع أدارة شؤون الكنيسة ولا استطيع حماية القسس والشمامسة ولا الرهبان ولا الراهبات ، ولا استطيع الحيلولة دون قيام الوثنيين بممارسة طقوسهم او منعهم من عبادة اصنامهم في هذه الاصقاع دون مساعدة امير الفرنجية وحمايته.

وعلى الرغم من التعاون بين شارل مارتل والكنيسة في هذا المجال فانه لم يتردد في وضع يده على الكثير من اراضي الكنيسة وممتلكاتها ، وذلك للحد من نفوذها المتزايد من جهة ولتوفير المال اللازم الذي كانت تحتاج اليه مملكة الفرنجة لمواصلة الحرب ضد المسلمين بشكل خاص من جهة أخرى . لقد استفاد شارل مارتل من اموال الكنيسة في اسناد جيشه من الفرسان. واستطاع فعلا تكوين جيش قوى كان الأول من نوعه عند الشعوب الجرمانية وهذا الجيش هو الذي حقق للفرنجة بقيادة شارل مارتل النصر على المسلمين في معركة بواتية عام ٧٣٢ ومع انه قد لا تكون لهذا النصر تلك الاهمية التي افضاها عليه المعاصرون الا انه على اية حال وفر لشارل مارتل الفرصة لمعالجة مشاكله الكثيرة في جهات اخرى.

ورث شارل مارتل عن ابيه وظيفة رئيس البلاط لجميع بلاد الفرنجة وبذل هو جهده للمحافظة على وحدة تلك البلاد، وحارب جميع القوى التي كانت تحاول النيل من تلك الوحدة او تحاول تحدي السلطة المركزية. لقد قاوم بشدة سلطة النبلاء المتزايدة وعمد الى تنحية الكونتات والدوقات في اجزاء المملكة وابدالهم بكونتات و دوقات من اوستراسيا فقط. فقد كان لا يثق باحد سواهم. قضى شارل مارتل على جميع مظاهر الاستقلال المحلي وعلى كل انواع التحدي للسلطة المركزية خاصة في برغنديا واكوتين . وقاد من اجل هذا حملتين ضد البافاريين و خمس

حملات ضد السكسون، وحملات كثيرة اخرى ضد اجزاء اخرى من مملكة الفرنجة. وهكذا ترك شارل مارتل المملكة عند وفاته وهي موحدة وقوية كل هذا ولم يكن هو الا رئيسا للبلاط دون ان يرتقي العرش .

انتهاء حكم الميروفنجيين وتولي الكارولنجيين الحكم :

اشترك ولدا شارل مارتل وهما كارلمان وبيين القصير في الحكم لفترة قصيرة من بعد وفاة ابيهما . ولكن الأول انسحب عام ٧٤٧ ودخل الدير فانفرد ببين بالسلطة وصمم ببين منذ البداية على وضع حد لوجود الميروفنجيين غير الطبيعي. وبدأ في اتخاذ الخطوات لذلك فوطد علاقاته بالكنيسة ، حيث اعاد لها بعض اراضيها التي كان والده قد انتزعها منها . ثم انتخب ببين ملكاً من قبل النبلاء الفرنجة المجتمعين في سواسن في كانون الثاني عام ٧٥٢ وكان بيين قد حصل على موافقة البابا حول هذا الامر. فقد تقدم الى البابا بالسؤال التالي هل هو صواب ان يحمل رجل لقب الملك بينما يقوم سواه بممارسة السلطة ؟ وكان الجواب في صالح ببين فقال البابا في اجابته ان ذلك امر ليس من الصواب بشي ولم يكتف البابا ستيفن الثاني بهذا، بل جاء بنفسه الى بيين في عام ٧٥٤ ونصب الملك بيبن ملكا على الفرنجة ، فكان بيين اول ملك في الغرب ينصب رسميا من قبل البابا . واثاب ببين البابا على موقفه هذا فقدم لــه المساعدة ضد اعدائه اللمبارديين ثم اعطى البابوية ما اخذ يعرف منذ ذلك الوقت باسم (منحه ببين (Pipen Donation)) وهي اراضي واقطاعيات كثيرة في ايطاليا. لقد عزز بيين بسياسته هذه تجاه الكنيسة التحالف والتعاون القائمين بين الفرنجة والبابوية. وكانت الكنيسة بامس الحاجة في هذا الوقت بالذات الى مساعدة بيين وحمايته فكانت تحيط بها المشكلات . فكان هناك خلافها المستعصي مع كنيسة القسطنطينية وكانت هناك تهديدات اللمبارديين المستمرة. على اية حال لم تكن سياسة بيين هذه تجاه البابوية الا تأكيدا العلاقات الصداقة التقليدية السابقة التي ترجع الى عهد كلوفس ، والتي سار عليها اغلب رؤساء البلاط ، ووطد دعائمها التعاون في هداية الشعوب الجرمانية الوثنية الى المسيحية. وواصل بيين سياسة التوسع ، وهذه هي السياسة التقليدية الأخرى التي تميز بها تاريخ الفرنجة . فبعد ان دفع المسلمين الى ما وراء جبال البرنس، وقضى على محاولات التمرد في اوكتين وبافاريا ، اندفع بيين في توسعه في سكسونيا. وهكذا نجح ببين في الحفاظ على انجازات عائلته في الابقاء على وحدة مملكة الفرنجة وقوتها.

والى جانب ما سبق ، فقد قام بيين باصلاحات مهمة في الكنيسة بعد ان دب الفساد في اجهزتها واقعدها التفسخ الذي حل بها عن القيام بواجباتها الروحية على الوجه الصحيح . فكان هناك الكثير من الاساقفة والقسس السيئ

السمعة واصبحت الكثرة من الكنائس فقيرة معوزة بعد ان نهب النبلاء اموالها واستطاعوا بطريقة او باخرى الاستحواذ على املاكها. ونتيجة للاصلاحات التي قام بها بيبن في هذا المجال استعادت الكنيسة مكانتها وهيبتها.

وقد عقدت عدة مجامع دينية (Synod) ونظمت خدمات الاساقفة والقسس، وطرد أولئك الذين لم يكونوا مؤهلين للخدمة الروحية. وانشئت كنائس جديدة ، وملئت الشواغر التي كانت تعاني منها الكنائس القديمة . والزم جميع الاساقفة باعلان ولائهم الكامل للبابا. وواضب بيبن على عقد مجامع دينية للحفاظ على نظام الكنيسة ولمحاسبة الاشخاص غير اللائقين بها.

لقد اكدت تلك المجامع الدينية عطلة ايام الاحد وفرضت على الجميع دفع عشوراً للكنيسة. وفي مجال السياسة الخارجية كانت المشكلة الايطالية اكثر المشكلات التي واجهت بيبن الحاحا. وكان البابا ، كما مر بنا، قد اسدي جميلا الى الكارولنجيين بتأييده ارتقاء بيبن عرش مملكة الفرنجة ، وصار لزاما على بيبن ان يرد ذلك الجميل ، بعد ان تعرض البابا ستيفن الثاني لخطر اللمبارديين وتهديداتهم لقد فرض ملك اللمبارديين اوستولف (Aistulf) (٧٤٩ – ٧٥٦) ضرائب باهضة على سكان ايطاليا ، وحاول البابا ، كما حاول الامبراطور الشرقي اقناعه بالعدول عن سياسته التعسفية في ايطاليا ، ولكن محاولاتهما باءت بالفشل فلجأ البابا الى بيبن والى النبلاء الفرنجة مستصرخا اياهم تقديم العون الى خليفة القديس بطرس الذي يخصه الله بمفاتيح السماوات والجنات. ولم يكتف البابا بهذا بل شد الرحال عام ٧٥٤ لمقابلة بيبن وقد مسحه ومسح ولديه كارلمان و شارلمان بالزيت المقدس. ودعا لهم جميعا ، وتوعد الفرنجة باللعنة الابدية ان هم اختاروا سواهم وذرياتهم للعرش. ولم يكن التدخل في الشؤون الايطالية من الامور المرغوب فيها من قبل بيبن والنبلاء الفرنجة، وحاول بيبن الا يفعل الا ما هو ضروري. ودخل الفرنجة ايطاليا ، وحقق بيبن انتصارات صغيرة على اوستولف، فاضطر هذا الى الخضوع ، معترفا بسيادة بيبن ومتنازلا عن كثير من الاراضي في ايطاليا الى البابا ، وانسحب الفرنجة من الساحة الايطالية، ولكن اوستولف عاد الى مضايقة البابا في السنة التالية ٧٥٥ الأمر الذي اضطر معه بيبن الى القيام بحملة ثانية على ايطاليا . وذلك بعد ان تلقى ذلك النداء المثير من خليفة القديس بطرس بحق القديس بطرس الذي يستصرخ ابناءه ويعرض عليهم الفردوس والنعيم لقاء اطاعته ويحذرهم العذاب الأليم من معصيته وخذلانه وفي هذه الحملة حوصر اوستولف في بافيا واجبر على الاستسلام. وقد الحقت مناطق شاسعة كانت خاضعة للمبارديين بالولاية البابوية، وفرضت غرامة حربية كبيرة على اللمبارديين والواقع صارت هناك دولة بابوية واسعة تحت حماية الفرنجة . وتماشيا مع تقاليد الفرنجة، قسم بيبن مملكته . بين ولديه شارلمان و كارلمان . وتوفي الاخير في عام ٧٧١ وتوحدت مملكة الفرنجة مرة اخرى تحت حكم شارلمان .